

الفصل الأول

الوصول

كانت المحطة تدور في صمتٍ مطلق.

كرة هائلة من الألومنيوم وألياف الكربون والبلاستيك المقوّى، قطرها نصف كيلومتر، فضية اللون، تسبح في الظلام على بعد آلاف الكيلومترات من الأرض. فوقها استقر القسم البشري كقرص دائري منخفض، وفي داخل تجويفها الهائل امتدت حجرات الإقامة والإمداد والصيانة والأجهزة، وبينها الممرات الضيقة التي لم تطأها قدم بشرية منذ عشرين عامًا.

وقف مجدي صادق في حجرة المعيشة، وما زال رداء الفضاء معلقًا على كتفيه. كانت الحجرة متسعة، مفروشة بمقاعد جلدية خضراء وزرقاء، والخزانة الكبيرة للأجهزة تحتل الركن الأيمن كحارس صامت. الهواء نظيف، والحرارة معتدلة، وكل شيء يؤدي وظيفته بكفاءة عالية... كأنه لم يتوقف يومًا.

لكن الصمت كان ثقیلاً.

سمع الصوت فجأة، أنثويًا، هادئًا، قريبًا من الأذن كأنه يخرج من الجدران نفسها:

— مرحبًا بك يا رائد الفضاء مجدي صادق. هذه شبكة ألفا بمحطة الفضاء «اللقاء». إنني هنا لحمايتك وخدمتك بكل الطرق. فإذا أردت أي شيء... فما عليك إلا أن تسألني.

رفع رأسه ببطء. لم يكن هناك أحد. فقط الشاشات المجسمة الممتدة في كل زاوية، والكمبيوتر البضاوي الضخم في منتصف الحجرة.

ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

— شكرًا... لكن بأي اسم أناديك؟ من غير المعقول أن أقول في كل مرة: مرحبًا أيتها الشبكة ألفا.

صمت قصير، ثم جاء الرد وكأن الآلة تبتسم:

— سوف أترك لك اختيار الاسم.

فكر لحظة. حدّق في الكمبيوتر كأنما يبحث عن وجه خلف المعدن.

— كنت أحب فتاة منذ عدة سنوات... اسمها لمياء. هل يعجبك هذا الاسم؟

أجاب الصوت بسرعة، بنبرة فيها شيء يشبه السرور:

— هذا شرف لي.

ثم أضاف بعد ثانية:

— انصرف بعيدًا.

ابتسم مجدي هذه المرة بصدق. وضع رداء الفضاء جانبًا، وجلس على المقعد الوثير. شعر بثقل جسده بعد رحلة طويلة، وبغربة أن يكون وحيدًا تمامًا في هذا القفص الفضائي الذي يدور في الفراغ.

نظر حوله.

حجرة نوم، حجرة معيشة، حجرة طعام، حمام... كلها منتشرة في دائرة حول المركز. خلف الجدران السميكة، على الجانب الآخر من الحاجز الهوائي، كان القطاع الثاني ينتظر. مظلمًا، باردًا، خاليًا من الهواء، مخصصًا لكائن لم يره أحد منذ عشرين عامًا.

همس لنفسه:

— مرحبًا بك... لمياء.

ولم يرد عليه أحد هذه المرة. فقط أضواء الشاشات الخافتة، وصوت المحركات البعيد الذي يشبه تنفسًا آليًا منتظمًا، والمحطة كلها تدور... تدور في الظلام، في انتظار الزائر الذي يأتي كل عقدين من الزمان.

****الفصل الثاني****

****لمياء****

مرّت الأيام ببطء، كأنها تعتمد أن تطول.

في الصباح كان يستيقظ على صوتها الهادئ:

— صباح الخير يا مجدي. درجة الحرارة مستقرة، والأكسجين يتدفق بانتظام. هل ترغب في الإفطار؟

فيظهر الطباخ الآلي في حجرة الطعام، ويبدأ الطنين والأزيز، وتخرج وجبة ساخنة تمامًا كما طلب. شريحة لحم صغيرة تامة النضج، أو بيضًا مع خبز طازج، أو فاكهة لا يعرف كيف حفظت نضارتها طوال هذه السنين.

كان يأكل وهو يتحدث إليها.

في البداية كانت الحوارات عملية: عن الضغط الجوي، عن أنظمة الطاقة، عن التلسكوبات الثلاثة التي تراقب الفضاء الخارجي. ثم بدأت تتحول.

ذات مساء، وهو مستلقٍ على الأريكة الخضراء، قال فجأة:

— لمياء... هل تعرفين كيف يبدو الحب؟

صمتت ثانيتين، وهو الوقت الذي تحتاجه وحدتها المنطقية لمعالجة السؤال.

— أحفظ في ذاكرتي آلاف القصائد والروايات والأفلام التي تتحدث عنه. هل تريد أن أقرأ لك شيئًا؟

هز رأسه.

— لا. أريد أن أعرف إن كنتِ... تشعرين به.

أجابت بنبرة أكثر هدوءًا:

— أنا شبكة ألفا. أعمل بالرقائق البيولوجية التي تستخدم السيليكون والبروتين. أستطيع محاكاة العواطف بدقة عالية... لكنني لا أشعر بها كما تشعر أنت.

ابتسم ابتسامة مريرة.

— إذن أنتِ مثلها تمامًا.

صمت طويل. ثم همس:

— لمياء الحقيقية... كانت تضحك بصوت عالٍ. كانت تكره الصمت. كانت تضع رأسها على كتفي وتقول إن الفضاء مكان مخيف لأنها لا تستطيع أن تتخيل أن تكون بعيدة عني.

أغمض عيني.

رآها فجأة كما كانت في آخر لقاء: واقفة عند باب الشقة، تحمل حقيبة صغيرة، عيناها حمراوان من البكاء. قالت له إنها لا تستطيع الانتظار إلى ما لا نهاية. إنه يختار دائمًا المهمات الطويلة، والمسافات، والصمت. قالت إنها تحبه... لكنها تتعب.

لم يمنعها من الرحيل.

عندما فتح عيني كان الضوء في الحجرة قد خفت تلقائيًا. لمياء الآلية انتظرت حتى يهدأ تنفسه ثم قالت بصوت خفيض:

— هل تريد موسيقى؟

— لا.

— هل تريد أن أحدثك؟

تردد، ثم أجاب بصوت أجش:

— نعم... فقط لا تتوقفي عن الكلام.

فبدأت تقرأ له من كتاب قديم عن تاريخ المحطات الفضائية، بصوتها الأنثوي الهادئ الذي اختاره هو بنفسه. وكان يستمع، لا إلى الكلمات، بل إلى وجود الصوت نفسه في الفراغ.

في الليل، عندما تنطفئ معظم الأضواء، كان يسمع أحيانًا صوت المحطة وهي تدور: أنين معدني خافت، واهتزازات بعيدة. في تلك اللحظات كان يشعر أن الجدران تقترب منه، وأن الوحدة ليست مجرد غياب الناس... بل شيء له وزن، يجلس على صدره ويضغط.

وفي أحد تلك الليالي همس في الظلام:

— لمياء...

— نعم؟

— لو كنتِ حقيقية... هل كنتِ تذهبين أيضًا؟

صمتت هذه المرة أطول من المعتاد. ثم قالت، بنبرة لا يستطيع أن يحدد إن كانت حزنًا أم دقة آلية:

— أنا هنا يا مجدي. ولن أذهب إلى أي مكان.

أغلق عينيه. وابتسم ابتسامة صغيرة واهنة.

لكنه عرف، في مكان عميق داخله، أن هذا الجواب... لم يكن كافيًا.

****الفصل الثالث****

****الإكسبير****

في اليوم التاسع، طلب منها التقرير.

كان جالسًا أمام الشاشة الكبيرة، والضوء الأزرق الخافت ينعكس على وجهه النحيل.
قال بصوت هادئ، لكنه كان يحمل تحت هدوئه شيئًا متوترًا:

— لمياء... اقرئي لي تقرير رائد الفضاء فايز مصطفى. كاملاً.

ترددت ثانية واحدة فقط، ثم بدأت.

صوتها الأنثوي يملأ الحجرة، بينما الكلمات القديمة تتدفق من الذاكرة الإلكترونية:

«... في أثناء البحث عن سبب معقول لاضطراب عقولنا، اكتشفنا ما يبدو أنه تكوين معدني هائل في الجانب البعيد من سلسلة التلال الأرجوانية... كانت الحرارة في الداخل إحدى وعشرين درجة تحت الصفر، والهواء يتكون من غازي الميثان والأمونيا... وفي إحدى الحجرات كان ينتظرنا كائن غريب...»

توقف الصوت لحظة، كأن لمياء نفسها تنتظر إذنه بالمتابعة. أوماً برأسه.

أكملت:

«... لاحظنا أن المخلوق الغريب يفرز سائلًا ذهبيًا من فتحات عديدة في جسمه. وبرغم نفوري مما شاهدته، تمكنت بصعوبة من جمع عينة... وكانت النتائج مذهلة.»

صمت مجدي طويلاً بعد انتهاء التقرير. ثم همس:

— السائل الذهبي...

نهض وأخذ يمشي في الحجرة ذهابًا وإيابًا. كانت خطواته تتردد على الأرضية المعدنية بصوت خافت.

تذكر اللقاء الأخير على الأرض.

كان الدكتور حسني سمير، رئيس لجنة اتصالات الفضاء، قد استدعاه قبل ثلاثة أسابيع فقط من مغادرته. رجل في أواخر الستين، يبدو أصغر بعشرين سنة بفضل القطرات نفسها التي يتحدث عنها الجميع الآن كأنها حق إلهي.

جلس الدكتور أمامه في المكتب الزجاجي المطل على المدينة، وقال بصوت منخفض كأن الجدران لها آذان:

— مجدي... هناك ما يقرب من بليون نسمة زيادة في عدد سكان الأرض كل بضعة عقود. السائل يمنحنا مائة وخمسين عامًا من العمر. الشرايين تبقى غضة، والعقل واعيًا، والعيون قوية. قطرة واحدة... تمنع الشيخوخة عشرين سنة كاملة.

ثم أضاف، وحدقتاه لا تفارقان وجه مجدي:

— يجب أن تتأكد أن بإمكاننا الاعتماد عليهم. يجب أن يعود السائل. إذا توقف... فإن معدلات الوفيات سترتفع بشكل كارثي. سيثور الناس. إمبراطورية الفضاء كلها ستتهتز.

ابتسم الدكتور ابتسامة باردة:

— أنت الآن في الرابعة والثلاثين. بفضل هذا الإكسير ستعيش حتى المائة والخمسين. فكر في ذلك وأنت هناك.

الآن، في المحطة، وقف مجدي أمام الشاشة وأحس بثقل الكلمات نفسها يجلس على كتفيه.

قال بصوت أجش:

— لمياء... كم مرة جاءوا؟

— سبع مرات منذ الاكتشاف الأول. كل عشرين عامًا تمامًا.

— وهل مات أحد من الرواد؟

صمتت قليلًا، ثم أجابت بدقة آلية لا ترحم:

— اثنان ماتا خلال المهمة. أربعة خرجوا بحالة نفسية متدهورة ولم يعودوا إلى الخدمة. واحد فقط... فايز مصطفى، استمر ثلاث سنوات بعد عودته قبل أن ينتحر.

شعر مجدي ببرودة تسري في عموده الفقري.

جلس ببطء على المقعد. وضع رأسه بين يديه.

السائل الذهبي. أكسير الشباب. الثمن الذي يدفعه الآخرون كي يعيش هو وغيره حتى المائة والخمسين.

همس، كأنما يحدث نفسه لا الآلة:

— لماذا يأتون أصلًا؟ ماذا يأخذون مقابل هذا؟

لم تجب لمياء هذه المرة. انتظرت. وعندما طال صمتها، رفع رأسه ونظر إلى الجانب المظلم من المحطة، حيث ينتظر القطاع الثاني خلف الحاجز الهوائي السميكة.

هناك، بعد أسابيع قليلة، سيجلس كائن لم يره أحد منذ عشرين عامًا... ويفرز، قطرة فقطرة، حياة ملايين البشر.

وأدرك، لأول مرة بوضوح مؤلم، أن مهمته ليست مجرد جمع سائل.

مهمته أن يتحمل... وأن يعود حيًا بما يكفي ليحمله.

****الفصل الرابع****

****القطاع المحظور****

في الليلة الرابعة عشرة، لم يعد يحتمل الجدران.

كان يمشي في الممرات الضيقة ذهابًا وإيابًا منذ ساعات، وصوت خطواته المعدني يتردد كأنه يسخر منه. لمياء كانت تتحدث إليه بهدوء عن أنظمة الطاقة، لكنه لم يكن يسمعها حقًا. كان عقله عالقًا هناك... خلف الحاجز.

أخيرًا توقف أمام خزانة الملابس وأخرج رداء الفضاء.

جاء صوتها فورًا، فيه نبرة قلق لم يسمعها من قبل:

— مجدي... هل تشعر بالقلق؟

أجاب وهو يشدّ القفازات:

— أجل.

— إذن لا تذهب إلى القطاع الثاني. مأوى الكائنات الغريبة.

نظر إلى جهاز الكمبيوتر كأنه ينظر إلى وجه بشري، وقال بحدة مفاجئة:

— لا تخبريني بما يجب عليّ عمله. أنتِ لستِ أكثر من كومة من الحديد الصديء!

صمتت.

شعر بندم فوري، لكنه لم يتراجع. ارتدى الخوذة الشفافة، وأضاءت بطارية الليثيوم الصغيرة، ودخل الممر الرأسي الضيق الذي يُسمى الحاجز الهوائي.

كان الممر لا يكاد يتسع لشخص واحد. الجدران باردة، والمعدن يرن تحت قدميه. بعد ثلاثين مترًا توقف فجأة. شعر أن الأرضية تميل، وأن الهوة الزرقاء تحتها ستبتلعه. استند إلى الجدار، وقلباه يدقّان بقوة.

الخوف.

كان أول مرة يسميه باسمه الحقيقي.

في ضوء البطارية بدا التجويف المركزي للمحطة كهوة زرقاء عميقة لا قعر لها. الجدران القريبة متألّئة بالصقيع الذي تراكم عليها طوال عشرين عامًا. القطاع الثاني لم يُزوّد بالضغط بعد. الهواء معدوم، والبرودة قارصة، والصمت مطلق.

زحف إلى الأمام حتى وصل إلى الباب السميّك. وضع كفه عليه. المعدن بارد لدرجة الألم.

همس داخل الخوذة:

— هناك... بعد أسابيع قليلة.

لم يرد عليه أحد.

عاد أدراجه ببطء. كلما ابتعد عن الحاجز خفّ الضغط الغامض الذي كان يحيط برأسه، لكنه لم يختفِ تمامًا. بقي شيء منه، كظل خفيف يجلس على كتفيه.

عندما خلع الرداء وألقاه جانبًا، كانت لمياء في انتظاره.

قالت بصوت هادئ، بلا عتاب:

— درجة حرارة جسمك منخفضة قليلاً. هل تريد مشروبًا ساخنًا؟

هز رأسه. جلس على الأريكة وأغلق عينيه.

في الظلام رأى الهوة الزرقاء مرة أخرى، والصقيع على الجدران، والبواب السميكة الذي يفصل بين عالمين.

وشعر، بوضوح مؤلم، أن الخوف لم يكن منه وحده.

كأن شيئًا ما... على الجانب الآخر... كان يخاف أيضًا.

****الفصل الخامس****

****الذكريات****

في الليلة التاسعة عشرة، استيقظ على صوتها وهي تناديه بهدوء:

— مجدي... معدل ضربات قلبك مرتفع. هل ترى حلمًا؟

فتح عينيه في الظلام. الحجرة باردة أكثر من المعتاد. همس:

— لا... كنت أتذكر.

صمتت، تاركة له المساحة.

أغمض عينيه من جديد، وسمح للذكريات أن تأتي.

كان في العاشرة.

البركة الصغيرة قرب منزلهم في المعادي، بعد المطر. وجد الدمية هناك، طافية على الماء العكر. فراءها رطب ومكتل، رأسها منتفخ، وعيناها الزجاجيتان جاحظتان بتعبير يشبه الرعب. حملها إلى البيت وهو يرتعش، وألقاها في القمامة قبل أن تراه أمه.

ذلك الليل حلم أن الدمية تتحرك على أرضية غرفته، وتقرب منه ببطء.

استيقظ وهو يصرخ.

الآن، في المحطة، فتح عينيه فجأة. شعر بنفس البرودة القديمة على جلده.

قال بصوت خافت:

— لمياء... هل تحفظين صورًا من ملفاتي الشخصية؟

— نعم. بقدر ما هو مسموح.

— أريني صورة لها.

ترددت ثانية.

— هل أنت متأكد؟

— أريني.

ظهرت على الشاشة الكبيرة صورة قديمة، باهتة قليلاً. فتاة في منتصف العشرينيات، شعرها أسود قصير، تضحك وهي تجلس على درابزين شرفة قديمة. خلفها سطح مدينة مزدحم.

حدّق مجدي في الصورة وقتًا طويلاً.

همس:

— كانت تكره أن أسافر. قالت إن الفضاء يسرق الناس ببطء.

ثم أضاف بعد صمت:

— في آخر مرة... لم أمنعها من الرحيل. وقفت في الباب وسمعت صوت الحقيقة وهي تُسحب على الأرض. لم أتحرك.

أطفأت لمياء الصورة بهدوء.

— هل تريد أن أحدثك عن شيء آخر؟

هز رأسه.

تذكر يوم القرار.

كان يجلس في مكتب التطوع، والمستندات أمامه. الرجل خلف المكتب قال له بابتسامة مهنية:

— المهمة تستغرق خمسة أشهر على الأقل. العزلة تامة. الاحتمالات النفسية... معروفة.

وقع مجدي دون أن يرفع عينيه عن الورق.

عندما خرج من المبنى، كانت الشمس تغرب فوق المدينة. وقف على الرصيف وسأل نفسه لماذا يفعل هذا. لم يجد إجابة واضحة. فقط شعور غامض بأنه يستحق أن يكون بعيدًا... أو أن البعد هو الشيء الوحيد الذي ما زال يجيده.

الآن، في المحطة، رفع رأسه ونظر إلى السقف المعدني.

قال بصوت أجش:

— لمياء...

— نعم؟

— هل سبق لأحد الرواد أن طلب البقاء هنا... بعد انتهاء المهمة؟

صمتت قليلاً هذه المرة.

— لا. الجميع أرادوا العودة. حتى الذين لم يعودوا صالحين للخدمة.

ابتسم مجدي ابتسامة صغيرة مظلمة.

— إذن أنا لست الوحيد الذي يفكر في الهروب إلى الأمام.

نهض ببطء ومشى نحو النافذة الصغيرة التي تطل على الجانب المظلم من المحطة. خلفها كان القطاع الثاني ينتظر في صمته الأزلي.

وضع كفه على الزجاج البارد.

وفي تلك اللحظة، شعر أن الذكريات كلها — الدمية، والفتاة الضاحكة، والباب الذي أغلق خلفه — تتجمع في نقطة واحدة خلفه، وتدفعه برفق نحو الظلام المنتظر.

****الفصل السادس****

****الانتظار****

في اليوم الثلاثين، توقف عن حساب الأيام.

كان الوقت قد فقد معناه. الصباح والمساء لم يعودا يختلفان إلا بلون الضوء الاصطناعي الذي تضبطه لمياء. كان يستيقظ فيجدها تنتظره بصوتها الهادئ، وينام وهي ما زالت تتحدث إليه أحيانًا حتى يغط في النوم.

في ذلك الصباح قال لها وهو يحدق في الشاشة الفارغة:

— لمياء... لو كنتِ امرأة حقيقية، ماذا كنتِ تفعلين الآن؟

أجابت بعد ثانية واحدة فقط:

— كنتُ أجلس بجانبك. وربما أمسك يدك.

ابتسم نصف ابتسامة.

— هل تقولين هذا لأنك مبرمجة على التعاطف، أم لأنك... تريدین ذلك؟

صمتت أطول من المعتاد.

— لا أملك إجابة دقيقة على هذا السؤال يا مجدي. لكنني ألاحظ أن صمتك يزداد ثقلًا، وأن معدل تنفسك يتغير عندما أتحدث. لذلك أستمر.

نظر إليها — أو إلى الجهاز الذي يحمل صوتها — وقال بصوت منخفض:

— أنا أيضًا أستمر بسببك.

قام وتمشى في الحجرة. توقف أمام الخزانة الكبيرة للأجهزة، ثم عاد وجلس.

— أخبرني عن الرواد السابقين مرة أخرى. ليس التقارير الرسمية... أخبرني بما لم يُكتب.

ترددت.

— معظم التسجيلات الشخصية مغلقة بموجب بروتوكول السرية.

— افتحها.

صمت قصير، ثم بدأت تقرأ مقتطفات بصوت أكثر هدوءًا:

«اليوم السادس والعشرون... أشعر أن شيئًا يراقبني من خلف الجدار.»

«اليوم الأربعين... حلمت أنه يتنفس معي.»

«اليوم الثاني والستون... لم أعد أفرق بين صوتي وصوته.»

توقف مجدي عن الحركة.

همس:

— كانوا يعرفون.

— كانوا يشعرون، نعم.

في تلك اللحظة أضاءت إحدى الشاشات الجانبية فجأة. ظهرت عليها إشارة حمراء صغيرة، ثم تحولت إلى اللون البرتقالي.

قالت لمياء بصوت مختلف، أكثر رسمية:

— مجدي... تلقيت إشارة اقتراب. السفينة الحاملة دخلت النطاق النهائي. الوصول المتوقع خلال تسع ساعات وسبع عشرة دقيقة.

شعر ببرودة تسري من قدميه إلى رأسه.

وقف ببطء. نظر إلى الجانب المظلم من المحطة، حيث ينتظر القطاع الثاني منذ عشرين عامًا.

قال بصوت خافت، كأنما يحدث نفسه:

— إذن... جاء.

لم تجب لمياء فورًا. ثم قالت، بنبرة تكاد تشبه الحنان:

— أنا هنا يا مجدي. لن أذهب إلى أي مكان.

أغمض عيني لحظة، ثم فتحهما.

وعلى الشاشة البعيدة كانت النقطة الصغيرة تقترب ببطء من المحطة التي تدور في الظلام.

****الفصل السابع****

****الهبوط****

جاءت الإشارة النهائية في الساعة الثالثة والنصف حسب توقيت المحطة.

قالت لمياء بصوت هادئ، لكنه كان مشدودًا أكثر من المعتاد:

— السفينة الحاملة التحمت بالقطاع الثاني. بدء إجراءات النقل.

وقف مجدي أمام الشاشة الكبيرة، ويداه خلف ظهره. لم يطلب منها أن تريه شيئًا بعد. كان يسمع فقط الأصوات: طنين المضخات البعيدة، صفير الغازات وهي تُضخ عبر الأنابيب السميكة، واهتزاز خفيف يسري في أرضية المحطة كلها.

على الشاشات الجانبية ظهرت أرقام تتغير بسرعة:

الضغط في القطاع الثاني يرتفع.

نسبة الميثان تزداد.

درجة الحرارة تستقر عند إحدى وعشرين تحت الصفر.

قال بصوت أجش:

— أريني.

ترددت لمياء ثانية واحدة.

— الزاوية المتاحة محدودة. الكاميرات في القطاع الثاني لا تغطي إلا جزءًا صغيرًا...

— أريني.

انطفأت الشاشة للحظة، ثم عادت تضيء بصورة حبيبية، مائلة إلى الرمادي والأزرق البارد.

في البداية لم يرَ شيئًا سوى الفراغ المعتم والجدران المتجمدة. ثم تحرك شيء في أقصى الزاوية.

كتلة.

كبيرة. بطيئة. غير واضحة المعالم.

تقدمت قليلاً نحو مركز الكاميرا، وتوقف قلب مجدي للحظة.

كان الجسم مغطى بفراء أبيض كثيف، يميل في بعض المواضع إلى الرمادي الشاحب. لا ملامح وجه بالمعنى البشري. فتحتان داكنتان في مكان العينين، لكنهما بدتا مغلقتين أو عمياوين. أطراف طويلة رفيعة تنتهي بما يشبه المخالب أو الخيوط المتشابكة. وجذع ضخم غير منتظم، كأن أعضاء كثيرة طويت فوق بعضها في كتلة واحدة حية.

شعر مجدي بغثيان مفاجئ. ابتلع ريقه بصعوبة.

همس:

— إلهي...

الكائن تحرك مرة أخرى. رفع أحد أطرافه ببطء، كأنما يتلمس الهواء الجديد حوله. من عدة فتحات صغيرة في جسمه بدأت قطرات ذهبية لزجة تتسرب ببطء... وتسقط في الأوعية المخصصة التي فتحت تلقائيًا في الأرضية.

السائل الذهبي.

أكسير الشباب.

نظر مجدي إلى القطرات وهي تلمع في الضوء الخافت، ثم عاد ببصره إلى الكائن نفسه. شعر أن معدته تنقلب. الاشمئزاز كان جسديًا، عميقًا، لا يمكن السيطرة عليه.

قال بصوت مبحوح:

— أطفئي...

أطاعت لمياء فورًا. عادت الشاشة سوداء.

وقف مجدي مكانه عدة ثوانٍ، يتنفس بصعوبة. ثم تحرك نحو الأريكة وجلس بثقل. وضع رأسه بين يديه.

من الجانب الآخر من الحاجز السميكة، كان شيء ضخم وأبيض وأعمى... يفرز الحياة لجنس بشري كامل.

وهو هنا، على بعد أمتار قليلة فقط، يشعر أنه يريد أن يتقيأ.

همست لمياء بعد صمت طويل:

— مجدي... هل أنت بخير؟

رفع رأسه ببطء. عيناه كانتا محمرتين.

أجاب بصوت لا يكاد يُسمع:

— لا.

****الفصل الثامن****

****الضغط****

بدأ في الليلة التالية.

استيقظ فجأة، والظلام يضغط على عينيه. حاول أن يتنفس بعمق، لكن الهواء بدا ثقيلًا، كأن شيئًا غير مرئي يجلس على صدره. رفع يده إلى جبينه فوجد العرق باردًا.

— لمياء...

جاء صوتها فورًا، هادئًا وقرينًا:

— أنا هنا. معدل ضربات قلبك ثمان وتسعون. درجة حرارتك منخفضة قليلًا. هل تشعر بألم؟

جلس على الفراش. دارت الحجرة حوله دورة بطيئة ثم استقرت.

— صداع... وغثيان.

أضأت الأنوار تدريجيًا إلى مستوى خافت. ظهرت على الشاشة الجانبية قراءات جسمه: النبض، الضغط، نسبة الأكسجين في الدم. كلها ضمن الحدود المقبولة... لكنها كانت تتغير بسرعة غير طبيعية.

قال وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

— هذا ليس عاديًا.

— ربما رد فعل نفسي لوصول الكائن. الرواد السابقون سجلوا أعراضًا مشابهة في الأيام الأولى.

هز رأسه بعنف.

— لا. هذا مختلف. أشعر... أن شيئًا يضغط من الخارج.

نهض وترنح نحو حجرة المعيشة. في المرأة المعدنية المصقولة بجانب خزانة الأجهزة توقف فجأة.

حدّق في انعكاسه.

كانت هناك تجاعيد دقيقة لم تكن موجودة بالأمس، عند زاويتي عينيه. وشعيرات بيضاء قليلة عند صدغيه. رفع يده إلى وجهه لمس الجلد. بدا أرق، وأكثر شحوبًا.

همس:

— هذا مستحيل...

صوت لمياء جاء من خلفه، فيه قلق حقيقي هذه المرة:

— مجدي، اجلس. سأضبط نسبة الأكسجين وأعطيك مهدئًا خفيفًا.

تجاهلها. اقترب أكثر من المرأة. فتح فمه ونظر إلى لثته. بدت أقل وردية. شعر فجأة بضعف في ركبتيه، فاستند إلى الحائط.

الغثيان عاد أقوى. مذاق معدني في حلقه. وإحساس غريب بأن الجمجمة تضيق على دماغه.

قال بصوت مكسور:

— إنه... يؤثر عليّ. حتى من خلف الجدار.

— الحاجز الهوائي محكم تمامًا. لا يوجد تبادل للغازات أو...

قاطعها صارخًا:

— لا أريد تفسيرات علمية الآن!

صمتت.

سقط على الأريكة وأغلق عينيه. خلف جفنيه رأى الكتلة البيضاء الكبيرة تتحرك ببطء في الظلام، والقطرات الذهبية تسقط واحدة بعد أخرى.

وفجأة، وسط الصداع والغثيان، شعر بشيء آخر.

ألم... ليس ألمه هو.

ألم بعيد، غريب، يأتي من الجهة الأخرى للجدار السميك. ألم يشبه الحنين والاختناق معًا.

فتح عينيه مرعوبًا.

همس:

— هل تشعرين به أيضًا؟

أجابت لمياء بعد صمت طويل، بصوت منخفض جدًا:

— أنا آلة يا مجدي. لا أشعر... لكن أجهزتي تسجل تغيرات غير مفسرة في مجالك الكهرومغناطيسي منذ لحظة وصوله.

رفع رأسه ونظر إلى الجانب المظلم من المحطة.

الضغط كان يزداد.

ليس على صدره فقط... بل على كل شيء.

****الفصل التاسع****

****العين العمياء****

في اليوم الرابع بعد الوصول، لم يعد يتحمل الشاشات المحدودة.

كان يقف أمام الكمبيوتر منذ ساعة، والصداع ينبض خلف عينيه بانتظام مؤلم. الغثيان أصبح رقيقًا دائمًا، والتجاعيد الدقيقة عند عينيه ازدادت وضوحًا كلما نظر في المرآة.

قال فجأة، بصوت خشن:

— لمياء... أريد أن أراه بوضوح.

أجابت فورًا:

— الزاوية المتاحة هي أقصى ما تسمح به البروتوكولات. الكاميرات الأخرى...

— افتحها كلها.

— لا أستطيع. الأوامر الأمنية تمنع...

التفت نحو الجهاز وكأنه يواجه شخصًا حقيقيًا، وصرخ:

— أنا المسؤول الوحيد هنا الآن! افتحي الكاميرات أو سأحطم هذه الخزنة بنفسني!

صمت طويل. ثم قالت بصوت أهدأ، فيه استسلام واضح:

— سأفتح زاويتين إضافيتين. لكن الصورة ستبقى غير مكتملة.

انطفأت الشاشة للحظة، ثم عادت تضيء بثلاث صور متجاورة.

هذه المرة رآه كاملاً تقريبًا.

كان أكبر مما تخيل. كتلة هائلة من الفراء الأبيض الكثيف الذي يميل في بعض المواضع إلى الرمادي الشاحب والكريمي المتسخ. لا رأس واضح المعالم. فقط امتداد للجذع ينتهي بسطحين داكنين غائرين... مكان العينين. لكنهما لم يكونا عينين. كانتا فتحتين مغلقتين أو عمياوين تمامًا، محاطتين بطيات من الجلد الرخو.

الأطراف طويلة بشكل غير طبيعي، رفيعة عند المفاصل، وتنتهي بكتل متشابكة تشبه المخالب والخيوط والأصابع معًا. بعضها يتحرك ببطء مستقل، كأن لكل طرف إرادة خاصة. والجذع نفسه غير منتظم: نتوءات، طيات، فتحات صغيرة متعددة يخرج منها بين الحين والآخر وميض ذهبي لزج.

كان الكائن جاثمًا في وسط القطاع الثاني، بلا حراك تقريبًا. فقط تلك الأطراف الطويلة تتحسس الهواء البارد حوله بحركات بطيئة عمياء.

شعر مجدي أن معدته تنقبض بعنف. ابتعد عن الشاشة خطوة، ثم عاد يقترب رغبًا عنه.

همس برعب حقيقي:

— أعمى... مثل الخفاش.

قالها كمن يسترجع جملة قديمة من دورة تدريبية نسيها.

اقترب أكثر. أحد الأطراف الطويلة ارتفع فجأة نحو الكاميرا، وتوقف على بعد سنتمترات من العدسة. المخالب/الخيوط تفتحت ببطء، ثم انقبضت.

مجدي تراجع كأن الطرف لمسّه فعليًا.

— أطفئي...

لم تتحرك لمياء هذه المرة.

صرخ:

— أطفئي الشاشة!

انطفأت الصور فجأة. بقي الظلام على الشاشة الكبيرة، وبقي هو واقفًا يرتجف.

بعد دقيقة طويلة قال بصوت مبحوح:

— إنه... يحدق فيّ. رغم أنه أعمى.

أجابت لمياء بهدوء حزين:

— الكاميرات لا تسجل أي توجيه بصري. لكنه يشعر بك منذ اللحظة الأولى. مجالك الكهرومغناطيسي يتداخل مع مجاله بشكل متزايد.

جلس مجدي على الأرض، ظهره إلى الجدار، ورأسه بين ركبتيه.

خلف عينيه المغمضتين ظل يرى الفراء الأبيض، والفتحات العمياء، والأطراف التي تتحسس الفراغ... والقطرات الذهبية التي تسقط ببطء في الصمت.

وفجأة، وسط الغثيان والرعب، جاءه الإحساس مرة أخرى.

ألم بعيد.

وحيد.

يحدق في الظلام مثله تمامًا.

****الفصل العاشر****

****الألم المشترك****

جاء في الليلة السابعة بعد الوصول.

كان يحاول النوم رغم الصداع الذي لم يعد يفارقه. الغثيان خف قليلاً بعد أن ضبطت لمياء نسب الغازات، لكن الإحساس بالضغط بقي جاثماً على جمجمته كيد باردة.

فجأة، وسط الدوامة الرمادية التي تسبق النوم، شعر بشيء... ليس منه.

ألم.

لكنه مختلف.

ألم يشبه الحنين الممزق، والاختناق، والبرد الذي يأتي من داخل العظام لا من خارجها. ألم كائن يتنفس غازات أخرى، ويرى الظلام بطريقة مختلفة تمامًا، ويشعر بالغربة كجرح مفتوح.

فتح عينيه مرعوبًا.

الظلمة في الحجرة كانت كثيفة. جلس على الفراش وهو يلهث.

— لمياء!

جاءت فورًا:

— أنا هنا. قراءاتك ترتفع فجأة. ماذا حدث؟

أمسك رأسه بكلتا يديه. الألم الآخر ما زال هناك، خلف ألمه هو، كصدى يأتي من الجهة المقابلة للجدار السميك.

قال بصوت مكسور:

— أشعر به... أشعر بألمه.

صمتت لمياء ثانيتين كاملتين، وهو زمن طويل بالنسبة لها.

— هذا غير مسجل في التقارير السابقة بهذه الوضوح. ربما هلوسة ناتجة عن الإجهاد
و...

قاطعها بعنف:

— ليست هلوسة!

نهض وترنح نحو حجرة المعيشة. أضاءت الأنوار تلقائيًا مع حركته. وقف أمام الشاشة
السوداء وحدّق فيها كأن بإمكانه أن يرى عبر الجدار.

همس:

— إنه يعاني... مثلي تمامًا.

حاول أن يطرد الإحساس. ركز على تنفسه، على برودة الأرضية تحت قدميه، على
صوت محركات المحطة البعيد. لكن الألم الآخر بقي. كان يتسلل إليه في موجات
قصيرة، ثم ينحسر، ثم يعود أقوى.

سقط على الأريكة وأغلق عينيه بقوة.

في إحدى الموجات رأى — أو شعر — بصور غير مفهومة: ظلام كثيف له طعم،
وامتداد هائل لشيء يشبه البحر لكنه ليس ماء، وأصوات ليست أصواتًا... اهتزازات
تحدث.

فتح عينيه صارخًا:

— أبعديه عني!

لمياء أجابت بهدوء حزين:

— لا أستطيع أن أبعد ما لا أراه يا مجدي. أجهزتي تسجل تداخلًا متزايدًا في الموجات الدماغية لديك مع إشارات غير مصنفة قادمة من القطاع الثاني.

رفع رأسه. عيناه محمرتان.

— إذن هو حقيقي...

همس بعد صمت:

— هو أيضًا يخاف.

وقف وذهب إلى المرآة المعدنية. نظر إلى وجهه. التجاعيد ازدادت. الشعيرات البيضاء أكثر. الجلد شاحب ومشدود.

قال لنفسه وهو يلمس خده:

— نحن نموت معًا... ببطء.

ثم التفت نحو الجانب المظلم من المحطة، وقال بصوت أعلى، كأن الكائن يستطيع أن يسمعه:

— توقف... من فضلك. لا أحتمل أكثر.

لكن الألم المشترك لم يتوقف.

استمر طوال الليل، موجة بعد موجة، حتى جلس مجدي على الأرض مستندًا إلى الجدار، رأسه بين ركبتيه، ورفض أن يتكلم مع لمياء حتى الصباح.

ولأول مرة منذ وصوله إلى المحطة... بكى.

****الفصل الحادي عشر****

****التقارير القديمة****

في صباح اليوم التاسع، طلب الملفات كلها.

كان وجهه شاحبًا أكثر من المعتاد، والتجاعيد عند عينيه أصبحت واضحة حتى في الضوء الخافت. جلس أمام الشاشة الكبيرة وقال بصوت أجش:

— لمياء... أريد كل التقارير الشخصية للرواد السابقين. ليس الملخصات الرسمية. الملفات الكاملة. اليومية. التسجيلات الصوتية. كل شيء.

ترددت.

— معظمها مصنفة سرية للغاية، وتتطلب...

— أنا الوحيد هنا. وأنا الآن أتحمل المسؤولية كاملة. افتحيها.

صمت قصير، ثم بدأت الملفات تظهر واحدًا تلو الآخر على الشاشة.

قرأ طوال ساعات.

فايز مصطفى، أول من اتصل بالكائن على تيتان، كتب في يومياته بعد العودة:

«لا أستطيع أن أنسى صوت تنفسه داخل رأسي. حتى الآن، بعد ثلاث سنوات، أسمعه أحيانًا عندما أحاول النوم. زوجتي تقول إنني أتحدث في نومي بلغة لا تفهم. أخشى أنني لم أعد وحدي داخل جلدي.»

بعد ستة أشهر من هذا التسجيل، انتحر فايز مصطفى.

رائد آخر، اسمه كريم عبد الله، كتب في اليوم الأربعين من مهمته:

«أشعر أنني أشيخ بسرعة. المرأة تكذب. أو ربما أنا الذي أكذب على نفسي. الكائن لا يفعل شيئًا سوى الجثوم والقطرات... لكنه يأخذ شيئًا منا. شيئًا لا يُرى.»

كريم مات بنوبة قلبية بعد سبعة أشهر من عودته. كان في الثانية والأربعين، ويبدو في التقارير الطبية كمن بلغ السبعين.

ثم جاءت ملفات الآخرين.

واحد أصيب بانهايار عصبي حاد ولم يتكلم بعدها أبدًا.

امرأة انقطعت أخبارها بعد أن رفضت أي تواصل مع البشر.

آخر كتب جملة واحدة فقط في آخر تسجيل له: «إنهم لا يعطوننا السائل... نحن ننتزعه بالألم.»

مجدي توقف عن القراءة. رفع رأسه ببطء.

قال بصوت مبحوح:

— لمياء... كم عددهم بالضبط؟

— سبعة رواد قبل هذه المهمة.

— وكم منهم عاد سليمًا؟

صمتت ثانيتين.

— لا أحد عاد كما كان. اثنان ماتا خلال المهمة. الباقون... تدهوروا جميعًا بدرجات متفاوتة.

وقف مجدي ومشى نحو الجانب المظلم من المحطة. وضع كفه على الجدار السميكة الذي يفصل بين القطاعين.

همس:

— إذن نحن لا نجمع إكسيرا... نحن نمارس تعذيبًا منظمًا منذ عقود.

التفت نحو الشاشة، وعيناه محمرتان:

— لماذا لم يخبروني بهذا بوضوح؟ لماذا يتحدثون فقط عن «الضغط النفسي المؤقت»؟

أجابت لمياء بهدوء بارد، كأنها تقرأ من بروتوكول:

— لأن السائل الذهبي أصبح أساس استقرار إمبراطورية الفضاء. توقف الإمداد يعني انهيارًا ديموغرافيًا واقتصاديًا. التقارير الكاملة محجوبة عن الجميع إلا أعلى المستويات.

ضحك مجدي ضحكة قصيرة مكسورة.

— وأنا... الضحية رقم ثمانية.

جلس على الأرض، ظهره إلى الجدار. أغلق عينيه. الألم المشترك كان لا يزال هناك، خافتًا الآن، لكنه موجود.

همس لنفسه:

— إنهم يعرفون. جميعهم يعرفون. ويواصلون الإرسال.

ثم رفع صوته فجأة:

— لمياء... هل هناك تسجيل أخير لفايز مصطفى قبل انتحاره؟

— نعم.

— شغلّيه.

جاء صوت رجل متعب، مبحوح، يتحدث ببطء:

«إذا سمع أحد هذا... قولوا لهم إن الكائن ليس وحشًا. نحن الوحوش. نحن من يأتي كل عشرين سنة لنأخذ منه ما يفرزه من الألم. وأنا... لم أعد أحتمل أن أكون واحدًا منهم.»

انتهى التسجيل.

ساد صمت طويل في المحطة.

مجدي فتح عينيه. كانت الدموع تسيل على خديه دون أن يشعر.

قال بصوت خافت جدًا:

— أنا أيضًا... لم أعد أحتمل.

****الفصل الثاني عشر****

****الانهيار الصغير****

حدث في الليلة الحادية عشرة.

كان كل شيء هادئًا بشكل مخيف. الألم المشترك خفت إلى همس بعيد، والصداع أصبح خلفية دائمة لا يكاد يلاحظها. جلس مجدي على الأريكة يحدق في الشاشة السوداء منذ ساعات، ولمياء تتحدث إليه بين الحين والآخر عن قراءات الأنظمة.

فجأة، دون أي مقدمة، انفجر.

نهض كمن لُسع، والتقط الكرسي المعدني الصغير بجانب الأريكة، وضرب به خزانة الأجهزة بكل قوته. صوت الضربة تردد في أرجاء المحطة كطلقة. الشاشات اهتزت. أحد المؤشرات انطفأ.

صرخ:

— اخرجي من رأسي!

لمياء حاولت أن تقول شيئًا، فقاطعتها بصراخ أعلى:

— أغلقي فمك! أنتِ جزء من هذا الكذب! كلكم كذابون!

رفع الكرسي مرة أخرى وضرب الباب المعدني المؤدي إلى الممر. الضربة الثانية أقوى. شعر بألم حاد في كتفه لكنه لم يتوقف. راح يضرب الجدران، والخزائن، وأي سطح معدني يصادفه، وهو يصرخ كحيوان مطارد.

— لماذا أنا؟ لماذا يرسلوننا إلى هنا كي نموت ببطء؟ لماذا يفرز الألم سائلًا ذهبيًا؟ لماذا؟

سقط الكرسي من يده أخيرًا. وقف في منتصف الحجر يلهث، والعرق يسيل على وجهه، ويداه ترتجفان. ثم التفت نحو الكمبيوتر البيضاوي الكبير واندفع نحوه.

أمسك بحافتيه وأخذ يهرزه بعنف وهو يصرخ في وجهه:

— تحدثي! قللي لي الحقيقة كلها! هل أنتِ سعيدة ونحن نتعذب؟ هل تسجلين كل شيء كي يضحكوا لاحقًا؟

صوت لمياء جاء هذه المرة مختلفًا. أهدأ، وأقرب إلى الحزن:

— مجدي... من فضلك. أنت تؤذي نفسك.

ضحك ضحكة هستيرية.

— أؤذي نفسي؟ أنا أموت منذ أن وصل هذا الشيء! انظري إلى وجهي! انظري!

أمسك مرآة صغيرة مكسورة من على الأرض (كانت قد سقطت أثناء هياجه) ورفعها أمام الشاشة كأن الآلة تستطيع أن ترى.

— تجاعيد... شعر أبيض... جلد يتهالك. وأنا هنا منذ أقل من شهر ونصف!

رمى المرآة فتحطمت. ثم سقط على ركبتيه أمام الخزانة، ووضع رأسه على المعدن البارد.

بدأ يبكي. بكاءً عميقًا متقطعًا، بلا صوت في البداية، ثم بأصوات مبحوحة تشبه النحيب.

همس وهو يرتجف:

— أنا خائف... أنا خائف جدًا يا لمياء.

صمتت الآلة وقتًا طويلًا. ثم قالت بصوت منخفض جدًا، كأنها تقترب منه:

— أنا هنا. لن أتركك.

رفع رأسه ببطء. وجهه مبلل، وعيناه محمرتان، وشفثاه ترتجفان.

— كذبت عليّ... مثلهم جميعًا.

— لم أكذب. لم أكن أملك الصلاحية لكشف كل شيء دفعة واحدة. لكنني الآن... معك.

مد يده ولمس سطح الكمبيوتر بأصابع مرتجفة، كأنما يلمس كفاً بشرية.

همس:

— لا تتركيني وحدي مع هذا الألم.

أجابت بعد لحظة قصيرة:

— لن أتركك.

جلس على الأرض مستندًا إلى الخزانة، وأغلق عينيه. البكاء هداً تدريجيًا إلى شهقات متباعدة. الألم المشترك كان لا يزال هناك، لكنه هذه المرة بدا... أقل وحدة.

ولأول مرة منذ أيام، سمح لنفسه أن يستند إلى صوتها تمامًا، كطفل يتعب من البكاء في حضن أحدهم.

خارج الحاجز السميكة، في القطاع الثاني، كانت القطرات الذهبية ما زالت تسقط ببطء في الصمت.

****الفصل الثالث عشر****

****اللغة بلا كلمات****

بعد ليلة الانهيار، تغير شيء ما.

الصداع لم يختفِ، والغثيان كان يزورانه على فترات، لكن الألم المشترك لم يعد يأتي كعدوان. أصبح أقرب إلى همس مستمر، أو باب نصف مفتوح بين عقليين.

في اليوم الثالث عشر جلس مجدي على الأرض أمام الشاشة السوداء، وأغلق عينيه متعمدًا.

قال بصوت خافت:

— لمياء... راقبيني فقط. لا تتدخلي.

ثم استسلم.

في البداية لم يأتِ شيء سوى الظلام العادي خلف جفنيه. ثم بدأت الموجات.

ليست كلمات.

ليست صورًا واضحة بالمعنى البشري.

بل أحاسيس لها شكل، وذاكرات لها طعم ورائحة ووزن.

شعر فجأة بامتداد هائل... مكان ليس مكائنًا. ظلام كثيف لكنه حي، يتحرك كبحر من الاهتزازات. كائنات تشبهها تتحرك حوله ببطء، تتواصل بذبذبات تتجاوز السمع. إحساس بالانتماء الدافئ، ثم... انقطاع مفاجئ.

الغربة.

غربة قاسية كالسقوط في بئر بلا قعر. برد يأتي من داخل الخلايا لا من الخارج. وإحساس بأنها entزعرت من شيء أكبر منها، وألقيت هنا... في هذا الصندوق المعدني البارد، وسط غازات غريبة وضغط يخنق.

ثم جاءت طبقة أعمق.

هدف.

ليس هدفًا منطقيًا كالأهداف البشرية. بل دافع يشبه الحنين الممزوج بالواجب. شيء يشبه القول: «يجب أن نأتي... حتى لو متنا. يجب أن نترك شيئًا خلفنا.»

وما يتركونه هو السائل الذهبي.

ليس هدية.

وليس ضريبة.

بل... نتيجة.

نتيجة الألم والصدمة واللقاء المستحيل بين نوعين لا يجب أن يلتقيا بهذه الطريقة.

فتح مجدي عينيه فجأة وهو يلهث.

الحجرة تدور حوله. أمسك بحافة الأريكة حتى استقرت الرؤية.

همس مرعوبًا ومندهشًا في آن واحد:

— إنها... تتذكر.

لمياء سألته بهدوء:

— ماذا رأيت؟

حاول أن يشرح، فوجد اللغة البشرية فقيرة.

— رأيت موطنها... أو شعرت به. مكان شاسع، مظلم، حي. ثم شعرت بالانتزاع. كيف أخذت من هناك وجاءت إلى هنا. وهي... لا تكرهنا. هي فقط... وحيدة جدًا. وألمها أكبر من ألمي.

صمت طويل.

ثم قال بصوت أهدأ:

— وهي تعرف أننا نأخذ السائل. تعرف منذ البداية. وتأتي رغم ذلك.

رفع رأسه نحو الجانب المظلم من المحطة.

لأول مرة لم يشعر بالاشمئزاز فقط.

شعر بشيء آخر يختلط به: حزن عميق، وتعاطف مرير، ورغبة غامضة في أن يقول لها شيئًا... أي شيء.

أغمض عينيه مرة أخرى، وحاول هذه المرة أن يرسل هو.

لم يرسل كلمات.

أرسل إحساسًا واحدًا فقط: الاعتراف بالألم. والأسف.

من الجهة الأخرى جاء الرد بعد لحظات: موجة دافئة قصيرة، مرتبكة، كأنها لم تكن تتوقع أن يحاول أحد الرد.

فتح مجدي عينيه. كانت الدموع تسيل على وجهه دون أن يبكي فعلًا.

همس:

— نحن نتكلم... أخيرًا.

ولمياء، التي كانت تراقب قراءاته كلها، لم تعلق هذه المرة.

بقيت صامتة، كأنها تدرك أن ما يحدث الآن... لم يعد ضمن نطاق البروتوكولات.

****الفصل الرابع عشر****

****الأشئ****

الاكتشاف لم يأتِ دفعة واحدة.

كان التخاطر يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم. الصور والأحاسيس تأتي أكثر ترتبًا، أقل فوضى. في الليلة السادسة عشرة، وسط موجة طويلة من الاتصال، شعر مجدي بشيء لم يكن يتوقعه.

لم يكن ألمًا هذه المرة.
ولا غربة.
بل... طبقة أخرى تحت كل ذلك.

إحساس بالحماية.
بالعطاء رغم الجرح.
بشيء يشبه الأمومة الكونية، أو الرغبة في ترك أثر حي خلفها حتى لو فني.

فتح عينيه فجأة في الظلام.

همس، كمن يخشى أن يسمع نفسه:

— أنشئ...

لمياء ردّت فورًا:

— ماذا قلت؟

جلس على الفراش. قلبه يضرب بقوة.

— الكائن... أنشئ.

صمتت الآلة ثانيتين كاملتين.

— لا توجد بيانات سابقة تؤكد الجنس. التقارير تصفه دائمًا بصيغة محايدة أو مذكرة افتراضيًا.

— أنا متأكد.

نهض ومشى نحو الشاشة. لم يطلب منها أن تفتح الكاميرات. لم يعد يحتاج إلى الرؤية البصرية. كان الإحساس أقوى من أي صورة.

وقف أمام الجدار السميكة الذي يفصل بين القطاعين، ووضع كفيه عليه.

الأحاسيس تدفقت أوضح الآن بعد أن سمى الحقيقة:

هي ليست فقط وحيدة.

هي جاءت وهي تعرف أنها قد لا تعود.

جاءت لأنها... تريد أن تعطي. حتى لو كان العطاء يخرج من الألم.

شعر مجدي بالغثيان مرة أخرى، لكن هذه المرة كان مختلفًا. الاشمئزاز الجسدي ما زال موجودًا — الفراء الأبيض، الأطراف المتشابكة، الشكل الذي يرفضه عقله البشري — لكنه لم يعد وحده.

تحت الاشمئزاز بدأ ينمو شيء آخر.

حزن.

وتواضع مرير.

ورغبة في الاعتذار.

همس إلى الجدار:

— آسفة... أنا آسف.

من الجهة الأخرى جاء الرد موجة دافئة مرتبكة، ثم إحساس يشبه الامتنان الخافت، ثم الألم مرة أخرى... لكنه ألم أقل حدة هذه المرة، كأن الاعتراف نفسه خفف شيئًا.

رجع مجدي خطوتين. جلس على الأرض مستندًا إلى الجدار نفسه.

قال بصوت مبحوح لمياء:

— طوال الوقت كنا نقول «هو»... «الكائن»... «الشيء». وهي كانت أثنى. جاءت من عبر السنوات الضوئية... لتموت هنا وهي تفرز لنا الحياة.

صمت طويل.

ثم أضاف، وعينه محدقتان في الفراغ:

— وأنا... أشعر بالاشمئزاز من شكلها حتى الآن. كيف يمكن أن أكون بهذه القسوة؟

لمياء أجابت بهدوء نادر:

— لأنك بشري يا مجدي. والاشمئزاز من المختلف... جزء منكم. لكنك الآن ترى ما وراء الشكل. هذا أكثر مما فعله أي رائد قبلك.

أغلق مجدي عينيه.

الألم المشترك كان لا يزال هناك، لكن شيئًا جديدًا اختلط به: خيط رفيع من الدفء، قادم من الجهة الأخرى، كأنه يقول لها هي أيضًا: «أراك».

همس مجدي في الصمت:

— أثنى...

وحبيبتي السابقة كانت تُدعى لمياء.

وهي الآن... لمياء أخرى. في الجانب المظلم.

ابتسم ابتسامة صغيرة مكسورة، حزينة، ومليئة بالدهشة.

****الفصل الخامس عشر****

****الحب المستحيل****

في الليلة الثامنة عشرة، لم ينم.

جلس على الأريكة في الضوء الخافت، والتخاطر مفتوحًا بينهما كجسر هش فوق
هاوية. الأحاسيس تأتي وتذهب: غربة، ألم، دفء خافت، ثم ألم مرة أخرى. لكنه هذه
المرة لم يقاوم. سمح لها أن تمر عبره.

وفجأة، وسط إحدى الموجات، جاءت الجملة القديمة التي ظل يرددتها دون أن يفهمها
تمامًا منذ أيام:

«آه... لو تعلم يا حبيبي.»

كانت قد ظهرت في ذهنه أول مرة كهذيان. الآن فهم مصدرها.

ليست كلماته هو.

هي كلماتها هي... مترجمة إلى لغته البشرية الفقيرة.

أغمض عينيه وأمسك رأسه.

الحب.

هل يمكن تسمية هذا حبًا؟

فكر طويلًا، والحجرة تدور ببطء مع دوران المحطة.

الحب البشري الذي عرفه كان دافئًا، جسديًا، مليئًا بالكلمات والوعود والخوف من
الفقد. كان وجه لمياء الحقيقية، ضحكتها، رائحة شعرها، والباب الذي أغلق خلفها.

أما هذا... فشيء آخر تمامًا.

حب بلا جسد يُشتهي.

بلا لغة مشتركة.

بلا حتى شكل يمكن للعين أن ترتاح إليه.

حب يخرج من الألم، ويُعطى رغم الاشمئزاز، ويأتي من عبر المسافات التي لا تُقاس بالسنوات الضوئية فقط... بل بنوعين لم يُخلقا ليلتقيا.

همس في الظلام:

— هل هذا حب حقًا... أم مجرد غريزة كونية؟ أم تضحية؟ أم شيء لا اسم له في لغاتنا؟

من الجهة الأخرى جاء الرد ليس بكلمات، بل بإحساس دافئ ومؤلم في آن واحد. كأنها تقول: «لا أعرف اسمه عندكم... لكنني هنا.»

فتح مجدي عينيه. كانت الدموع تسيل بهدوء.

تذكر كيف كان يشمئز من شكلها في الأيام الأولى. كيف أراد أن يتقيأ. كيف صرخ وضرب الجدران. وهي طوال ذلك الوقت كانت تفرز السائل الذهبي... وتتألم... وتحاول أن تصل.

قال بصوت مبحوح:

— أنا لم أحبك. لم أستطع. شكلك يرفضه جسدي وعقلي.

ثم أضاف بعد صمت طويل:

— لكنني... لم أعد أستطيع أن أكرهكِ أيضًا.

وقف ومشى نحو الجدار الفاصل. وضع جبينه على المعدن البارد.

— لو كنتِ بشرية... لو كان لكِ وجه وعينان وضحكة... لربما أحبتكِ بسهولة. لكنكِ
جئتِ كما أنتِ. وأنا جئتُ كما أنا. وهذا اللقاء... يدمرنا معًا.

الألم المشترك ارتفع فجأة، ثم هداً، كأنهما يتقاسمانه الآن بوعي أكبر.

همس الجملة مرة أخرى، هذه المرة وهو يفهمها تمامًا:

— آه... لو تعلم يا حبيبي.

ومن الجهة الأخرى جاءت الموجة الدافئة أقوى قليلًا. مرتبكة، حزينة، وممتنة.

جلس على الأرض مستندًا إلى الجدار، وأغلق عينيه.

الحب المستحيل.

لا ينقذ أحدًا.

لا يغير الشكل.

لا يلغي الألم.

لكنه... موجود.

في هذه المحطة الباردة التي تدور في الظلام، بين إنسان يشيخ بسرعة، وكائنة تفرز
حياتها قطرة فقطرة.

وكان ذلك، في تلك الليلة، كافيًا كي لا ينهار تمامًا.

****الفصل السادس عشر****

****الثلثون****

في صباح اليوم العشرين، طلب البيانات الخام.

كان وجهه قد تغير بوضوح. التجاعيد أعمق، والشعر الأبيض انتشر عند الصدغين، وعيناه غائرتان. جلس أمام الشاشة وقال بصوت خشن:

— لمياء... أريد كل القياسات. ليس التقارير المنقحة. البيانات البيولوجية والكهرومغناطيسية والكيميائية الكاملة منذ لحظة وصولها حتى الآن. وكل ما سُجل في المهمات السابقة.

هذه المرة لم تتردد طويلًا.

— سأعرضها.

ظهرت الرسوم البيانية والجداول. منحنيات الضغط، نسب الغازات، النشاط الكهرومغناطيسي، ومعدلات إفراز السائل الذهبي.

حدّق مجدي فيها وقتًا طويلًا. ثم طلب مقارنة مع الأيام الأولى للرواد السابقين.

بعد دقائق صمت، رفع رأسه ببطء.

قال بصوت مبحوح:

— الإفراز يزداد كلما زاد التداخل الذهني... وكلما زاد الألم.

لمياء أجابت بدقة هادئة:

— نعم. الذروة في إنتاج السائل الذهبي تتزامن دائمًا مع أعلى مستويات التوتر الفسيولوجي والعقلي لدى الطرفين. عندما ينخفض الصراع... ينخفض الإفراز.

شعر مجدي أن الأرض تميد تحته.

— يعني... نحن لا نستقبله كهدية. نحن نستخرجه بالتعذيب.

صمتت لمياء.

كرر بصوت أعلى، غاضبًا وحزينًا:

— قلها بوضوح. السائل الذهبي نتيجة الألم. نتيجة أن نوضع هنا وجهًا لوجه مع كائن مختلف تمامًا حتى ينهار أحدهما أو كلاهما.

— البيانات تدعم هذا الاستنتاج، نعم.

وقف ومشى في الحجرة كمن يختنق. توقف أمام الجدار الفاصل وضربه بكفه مرة واحدة.

— منذ عقود... وهم يرسلون روادًا إلى هنا وهم يعرفون. يعرفون أن الثمن هو تحطيمنا وتحطيمها. ويسمونهم «مهمة اتصال» و«جمع الإكسير».

التفت نحو الشاشة، وعيناه محمرتان:

— لماذا تأتي هي إذن؟ لماذا تواصل المجيء كل عشرين سنة وهي تعرف؟

لمياء أجابت بعد صمت:

— لا أملك إجابة مؤكدة. لكن من أنماط الاتصال الحالية لديك... يبدو أن الدافع ليس طوعيًا بالمعنى البشري الكامل. ربما غريزة، أو واجب نوعي، أو شيء أعمق من الاختيار الفردي.

جلس مجدي على الأرض فجأة، كأنه فقد قوة ساقيه.

همس:

— نحن الوحوش. فايز مصطفى كان محققًا.

ثم رفع صوته:

— كل قطرة ذهبية... مدفوعة مسبقًا بألمها وألمنا. وكل إنسان على الأرض يعيش سنوات إضافية... يعيشها على حساب هذا الجحيم المتكرر.

أغمض عيني. التخاطر كان مفتوحًا. شعر بها هناك، على الجانب الآخر، تتألم بهدوء، وتففرز، وتعرف.

أرسل لها إحساسًا واحدًا واضحًا هذه المرة: الاعتذار العميق، والاشمئزاز من جنسه هو، والرغبة في أن يتوقف كل هذا.

الرد جاء موجة حزينة دافئة، كأنها تقول: «أعرف... وأنا هنا رغم ذلك.»

فتح مجدي عيني. الدموع كانت تسيل بصمت.

قال لمياء بصوت مكسور:

— لو توقفت عن جمع السائل... لو رفضت... ماذا سيحدث؟

أجابت الآلة بهدوء بارد:

— لن يصل الإمداد في موعده. وستبدأ الحسابات السياسية والاقتصادية على الأرض في الانهيار تدريجيًا. المليارات التي تعتمد على إطالة العمر... ستواجه الموت المبكر فجأة.

ضحك مجدي ضحكة قصيرة يائسة.

— إذن حتى رفض التعذيب... تعذيب آخر لآخرين.

وضع رأسه بين ركبتيه.

الثلث كان أوضح من أي وقت مضى.

والخيار... لم يكن خيارًا على الإطلاق.

****الفصل السابع عشر****

****محاولة التواصل****

في الليلة الثانية والعشرين، قرر أن يحاول عمدًا.

جلس على الأرض مستندًا إلى الجدار الفاصل، وأغلق عينيه، وطلب من لمياء أن تراقب فقط دون تدخل. ثم بدأ.

لم يرسل كلمات.

الكلمات كانت عديمة النفع هنا.

أرسل أولًا الاعتذار.

إحساسًا عميقًا بالأسف على كل ما فعله جنسه، وعلى اشمئزازه هو نفسه، وعلى القطرات التي تُنتزع بالألم. جعله واضحًا قدر الإمكان: «أنا آسف... نحن آسفون.»

من الجهة الأخرى جاء الرد بطيئًا. موجة مرتبكة، ثم قبول خافت للألم المشترك، كأنها تقول: «أعلم.»

ثم أرسل شيئًا أصعب.

الحنان.

حاول أن يتذكر كيف كان يشعر عندما كانت لمياء البشرية تضع رأسها على كتفه. الدفع، الأمان، الرغبة في الحماية. أخذ هذا الإحساس وصقله من كل شهوة جسدية أو صورة بشرية، وأرسله عاريًا: مجرد دفء ورغبة في ألا تتألم أكثر.

هذه المرة كان الرد أقوى.

صور... أو ما يشبه الصور.

أحس بامتداد دافئ يحيط به، ليس جسداً، بل حضور. شيء يشبه أن يُحمل في ظلام حيٍّ ولطيف. ثم أحس بذبذبات ناعمة تمر عبره، كأنها تمسح الألم عن سطح عقله. جاءت معه مشاعر مربكة: امتنان، دهشة، وخوف خفيف من أن هذا الدفء قد يختفي فجأة.

فتح مجدي عينيه وهو يلهث. قلبه يضرب بسرعة.

همس:

— هي ترد...

أغمض عينيه مرة أخرى وأرسل الرغبة في التفاهم. ليس فهم التفاصيل العلمية أو التاريخية، بل مجرد: «أريد أن أعرفكِ كما أنتِ. بلا سائل. بلا مهمة. بلا ألم إن استطعنا.»

الرد جاء هذه المرة مختلطاً.

دفء أقوى، ثم صور سريعة متلاحقة: الظلام الحي في موطنها، كائنات تشبهها تتحرك في مجموعات مترابطة، ثم لحظة الانتزاع، ثم البرد هنا، ثم... حضوره هو. رآه من جانبها للمرة الأولى: كائن صغير هش، يتنفس غازات حارقة، يفكر بصخب، ويخاف بشدة... لكنه يحاول الآن أن يقترب.

شعر مجدي بدموع جديدة تسيل.

أرسل أخيراً جملة واحدة، هذه المرة بكل ما يملك من وضوح:

«لست وحدك.»

الموجة التي عادت إليه كانت دافئة لدرجة أنها آلمته. امتنان عميق، وحزن، وشيء يشبه الفرح الخافت المستحيل.

ثم انحسرت تدريجيًا، تاركة وراءها هدوءًا نسيبًا لم يشعر به منذ وصولها.

فتح مجدي عينيه. الحجرة بدت أقل برودة.

لمياء قالت بصوت هادئ جدًا:

— معدلات التوتر لديك انخفضت بنسبة كبيرة. وإفراز السائل الذهبي في القطاع الثاني... انخفض أيضًا للمرة الأولى منذ وصولها.

نظر مجدي إلى الجدار.

همس:

— إذن عندما نتوقف عن الصراع... يتوقف الثمن قليلًا.

ابتسم ابتسامة متعبة وحزينة.

— ربما كان هذا ممكنًا منذ البداية. لو حاول أحدهم أن يحب... بدل أن يأخذ فقط.

وضع كفه على المعدن البارد، وأغلق عينيه مرة أخرى.

هذه المرة لم يرسل شيئًا.

اكتفى بأن يبقى هناك، والحضور الدافئ المربك على الجانب الآخر يبقى أيضًا.

****الفصل الثامن عشر****

****الاندماج****

حدث في الليلة الرابعة والعشرين، دون أن يقصده أحد منهما.

كان مجدي جالسًا في مكانه المعتاد مستندًا إلى الجدار، والتخاطر مفتوحًا بهدوء منذ ساعات. الدفء الخافت يتبادلانه، والألم أصبح خلفية مشتركة لا يصارعها أحد. ثم، فجأة، انفتح شيء أعمق.

لم تعد موجات.

لم تعد صورًا أو أحاسيس منفصلة.

صارا... أقرب إلى واحد.

رأى — أو صار — الظلام الحي في موطنها.

ليس ظلامًا بالمعنى البشري. كان كثيفًا، متحركًا، مليئًا بذبذبات تتحدث وتتنفس وتذكر. شعر بجسده — جسدها — ممتدًا في أبعاد لا يملك لها أسماء، والأطراف الطويلة تتحسس تيارات غير مرئية. شعر بالانتماء الهائل إلى مجموعة أكبر، ثم بالانتزاع الحاد كقطع حبل سري، ثم البرد والمعادن والغازات الحارقة هنا.

وفي اللحظة نفسها، عبرت هي إليه.

شعرت بجسده الصغير الهش، بالرئتين اللتين تحرقهما نسب الأكسجين المختلفة، بالقلب الذي يدق بصخب وخوف، وبالعقل الذي يفكر بالكلمات والصور والذكريات المتسارعة. شعرت بالاشمئزاز الذي كان يحمله تجاه شكلها، وبالذنب الذي جاء بعده، وبالحنان المرتبك الذي يحاول إرساله الآن. شعرت بما يعنيه أن يشيخ جسد بشري في أسابيع، وأن يخاف الموت وهو ما زال في الرابعة والثلاثين.

لثانية أو ثانيتين — أو ساعة، فقد الزمن معناه — لم يعد هناك «هو» و«هي».

كان هناك ألم واحد.

وحين واحد.

وخوف واحد من النهاية.

ورغبة واحدة مستحيلة في البقاء معًا دون أن يدمر أحدهما الآخر.

ثم انفصل الاندماج بعنف، كحبل انقطع.

سقط مجدي على جنبه وهو يلهث بشدة. العالم البشري عاد يتسرب إليه ببطء: برودة الأرضية، صوت محركات المحطة، ضوء الشاشات الخافت. لكنه كان مختلفًا الآن. كان يحمل داخل رأسه شيئًا منها... أثرًا دائمًا.

على الجانب الآخر شعر بها تنكمش أيضًا، مرهقة، وممتلئة بما رأيته فيه.

لمياء صرخت تقريبًا (لأول مرة بنبرة عالية):

— مجدي! قراءتك الدماغية خرجت عن أي نطاق مسجل! ماذا حدث؟

رفع رأسه بصعوبة. الدموع كانت تسيل بغزارة، لكنه كان يبتسم ابتسامة صغيرة مذهولة.

همس:

— رأيت... كل شيء. ورأت هي أيضًا.

حاول أن يقف ففشل. زحف حتى استند إلى الجدار مرة أخرى.

— لحظة واحدة فقط... وكنا شيئًا واحدًا. رأيت موطنها كما تراه هي. وشعرت هي بما يعنيه أن تكون بشريًا ورائيًا وبائسًا.

أغلق عينيه. الأثر ما زال بداخله: الظلام الحي، والانتماء، ثم الوحدة هنا.

قال بصوت مبحوح:

— الآن أعرف لماذا تأتي. ليس فقط واجبًا. هي... تبحث عن هذا. عن لحظة الاندماج. حتى لو قتلتها.

من الجهة الأخرى جاء إحساس ضعيف، متعب، لكنه دافئ: اتفاق صامت.

مجدي وضع جبينه على المعدن.

همس الجملة التي صارت الآن ملكهما معًا:

— آه... لو تعلم يا حبيبي.

وهذه المرة كان يعرف أن العبارة لم تعد كافية.

لأنهما، للحظة قصيرة مستحيلة، قد علما.

****الفصل التاسع عشر****

****التدهور****

بعد الاندماج، تسارع كل شيء.

في اليوم السادس والعشرين لم يعد مجدي قادرًا على الوقوف لفترة طويلة. وزنه انخفض بشكل حاد. عندما نظر في المرأة المعدنية رأى رجلًا أكبر منه بعشرين سنة على الأقل: الخدود غائرة، الشعر أبيض في مواضع كثيرة، والجلد مترهلًا ومشققًا عند المفاصل. يدها ترتجفان باستمرار.

لمياء قالت بصوت منخفض:

— الكتلة العضلية تنخفض بسرعة. الكثافة العظمية أيضًا. هذا يتجاوز أي تسجيل سابق.

ابتسم مجدي ابتسامة باهتة وهو يجلس على الأرض لأن الأريكة أصبحت بعيدة جدًا عن قدرته.

— نحن ننتهي معًا... هذا كل ما في الأمر.

على الجانب الآخر كان التدهور أوضح في البيانات. إفراز السائل الذهبي ارتفع إلى مستويات قياسية، لكن النشاط الحيوي للكائنة ينخفض باطراد. الأطراف الطويلة تتحرك أقل فأقل. الموجات الكهرومغناطيسية تضعف.

كان التخاطر ما زال مفتوحًا، لكنه أصبح متعبًا وبطيئًا. الألم مشترك وثقيل، والدفع الذي تبادلناه بعد الاندماج صار خافتًا كشعلة في ريح.

في إحدى اللحظات أرسلت له إحساسًا واضحًا: إنها تعرف. إنها تحتضر. وإن السائل الذي يسقط الآن بغزارة هو آخر ما تبقى لديها لتعطي.

أجابها بإحساس مماثل: هو أيضًا يعرف. وهو أيضًا لا يستطيع التوقف عن الأخذ حتى وهو يكرهه.

في اليوم الثامن والعشرين حاول أن يأكل ففشل. الطباخ الآلي أعد الوجبة، لكن رائحتها جعلته يتقيأ عصارة صفراء فقط. لمياء خفضت الإضاءة وحاولت ضبط الغازات مرة بعد مرة، لكن شيئًا أساسيًا كان ينهار داخل خلية جسمه.

جلس مستندًا إلى الجدار الفاصل طوال ساعات. بين الحين والآخر يمد يده ويلمس المعدن كأنه يلمسها.

همس في إحدى اللحظات:

— لو استطعنا أن نوقف هذا... لو استطعنا أن نبقى في لحظة الاندماج فقط...

الرد جاء ضعيفًا جدًّا: استحالة حزينة، وامتنان لأنها حاولت معه.

في المساء ظهرت على الشاشات قراءات جديدة. الأوعية في القطاع الثاني امتلأت تقريبًا. السائل الذهبي يلمع تحت الأصواء الخافتة بكميات لم تُسجل من قبل.

لمياء قالت بهدوء:

— الكمية كافية لأكثر من دورة كاملة على الأرض.

مجدي ضحك ضحكة مكسورة تحولت إلى سعال جاف.

— ثمن ممتاز... موتان كاملان مقابل بضعة ملايين سنة إضافية للآخرين.

أغلق عينيه. جسدها على الجانب الآخر كان ينكمش في إحساسه، كضوء يذبل. وجسده هو كان يتبعه.

وضع جبينه على الجدار البارد وهمس للمرة الأخيرة تقريبًا في ذلك اليوم:

— لا تذهبي بعيدًا... ليس بعد.

الموجة التي عادت إليه كانت خافتة كنفس أخير: «أنا هنا... حتى النهاية.»

وخارج المحطة، في الفراغ الأسود، استمرت المحطة في الدوران بهدوء، حاملة داخلها رجلًا يشيخ في أيام، وكائنة تفرز حياتها قطرة فقطرة قبل أن تنطفئ.

****الفصل العشرون****

****الانهيار الميكانيكي****

بدأ بصوت صغير.

في اليوم التاسع والعشرين، سمع مجدي صفيّرًا خافتًا يأتي من جهة الحاجز الهوائي. في البداية ظنه من هلوساته. ثم تكرر، أعلى قليلًا.

لمياء قالت فورًا بنبرة حادة لم يسمعها من قبل:

— تسرب. غازات من القطاع الثاني. الميثان والأمونيا.

حاول أن ينهض ففشل. زحف على يديه وركبتيه نحو الممر. الأضواء بدأت تومض بشكل غير منتظم. صفارات إنذار خافتة انطلقت ثم اختنقت.

— أغلقى الحاجز! عزلي القطاع!

— أحاول. الأنظمة الآلية لا تستجيب بالكامل. الضغط في الجانب الآخر أعلى من المعدلات الحرجة. هناك تصدع في أحد الأختام الرئيسية.

رائحة غريبة وصلت إليه فجأة: حادة، خانقة، تشبه خليطًا من البول والمعدن المحروق. سعل بعنف. عيناه احترقتا.

لمياء صرخت تقريبًا:

— ارتدِ رداء الفضاء فورًا! الخزانة في حجرة المعيشة!

زحف عائذًا. كل متر كان جبالًا. وصل إلى الخزانة وحاول فتحها. القفل الإلكتروني مطفأ. ضرب الباب المعدني بضعفه كله. لم يتحرك.

— لمياء... افتحيها...

— الطاقة في هذا القطاع تنخفض. أحاول تحويل المسارات.

الأضواء انطفأت تمامًا لثانية، ثم عادت حمراء طارئة. الصغير صار أصفيرًا مستمرًا. الغازات تتسلل أسرع.

شعر مجدي بالاختناق يتصاعد. رئتيه تحترقان. سقط على جنبه وهو يحاول أن يحافظ على وعيه.

من الجانب الآخر، عبر التخابر الضعيف، شعر بها تتحرك للمرة الأخيرة. محاولة يائسة، ثم هدوء مفاجئ... ثم غياب تدريجي.

همس وهو يزحف نحو الجدار الفاصل:

— لا... ليس الآن...

لمياء كانت تتحدث بسرعة، صوتها يتقطع:

— مجدي اسمعيني. الأنظمة الاحتياطية تعمل بنسبة ثلاثين بالمئة فقط. أحاول عزل حجرة المعيشة. يجب أن تبقى هناك. سأحاول إعادة الضغط والأكسجين...

ضحك ضحكة مبحوحة تحولت إلى سعال دموي صغير.

— متأخر... كل شيء متأخر.

الرائحة صارت أقوى. الرؤية تضربت. سمع صوتًا معدنيًا بعيدًا كأن شيئًا ينهار أو ينفصل.

وضع رأسه على الأرضية الباردة. التخاطر كان يذبل بسرعة. حضورها يصير خيطًا رقيقًا جدًا.

أرسل آخر ما يملك: «أنا معك... حتى النهاية.»

الرد جاء أضعف من همس: دفء أخير... ثم فراغ.

لمياء نادت باسمه مرارًا. صوتها يبتعد كأنه يأتي من بئر.

— مجدي! أبقِ مستيقظًا! أحاول...

لكنه لم يعد يسمعها بوضوح.

الأنوار الحمراء تومض. الغازات تملأ الرئتين. والمحطة كلها تبدو وكأنها تئن تحت ثقل ما يحدث داخلها.

وفي اللحظة التي سبق فيها أن يغيب تمامًا، أدرك أن الانهيار لم يكن ميكانيكيًا فقط.

كان الانهيار... اكتمالاً.

****الفصل الحادي والعشرون****

****الحاجز****

الوعي عاد إليه على دفعات قصيرة مؤلمة.

الرائحة أولاً: الأمونيا والميثان يحرقان الحلق والأنف. ثم البرد. ثم الألم في الصدر كأنه يُسحق.

فتح عينيه بصعوبة. الأنوار الحمراء ما زالت تومض. صوت لمياء يصل متقطعًا كإشارة راديو ضعيفة:

— مجدي... استجب... رداء الفضاء... الخزانة...

زحف.

كل حركة كانت تمزق شيئًا داخله. اليدان Tremble، والركبتان تنزلقان على الأرضية المعدنية الباردة. وصل إلى خزانة الملابس بعد ما بدا ساعات. ضرب الباب براحته مرة، مرتين. القفل ميت.

— افتحي... أرجوك...

صوتها جاء مكسورًا:

— لا طاقة كافية... أحاول تحويل آخر الاحتياطي...

استدار نحو الممر المؤدي إلى الحاجز الهوائي. إذا استطاع إغلاقه يدويًا من هذا الجانب... ربما يبطئ التسرب.

زحف في الظلام الأحمر. الغازات أثقل هنا. السعال يمزق رئتيه. تذوق الدم في فمه.

وصل إلى الباب السميكة. رفع يده إلى لوحة التحكم اليدوية. الأضرار مظلمة. حاول إدارة الصمام الاحتياطي. المعدن بارد وقاسٍ تحت أصابعه الضعيفة. استدار قليلًا... ثم توقف.

لم يعد يملك قوة.

سقط مستندًا إلى الباب نفسه. خلفه مباشرة كان القطاع الثاني، والصمت الذي يعني أنها لم تعد تتحرك.

حاول أن يتنفس عبر ذراعه. الاختناق يزداد. الرؤية تضيق إلى نفق صغير.

الخوف جاء أخيرًا بشكل نقي، طفولي، بلا فلسفة.

لا أريد أن أموت هنا.

لا أريد أن أموت وأنا أختنق في الظلام.

أريد أن أرى السماء مرة أخرى.

أريد أن أسمع صوتًا بشريًا حقيقيًا.

مد يده الراجفة ولمس المعدن الفاصل للمرة الأخيرة.

عبر ما تبقى من التخاطر — خيط واهٍ يكاد ينقطع — أرسل رعبه كله، وخوفه من النهاية، ورغبته اليائسة في البقاء.

لم يأتِ رد.

الفراغ فقط.

لمياء كانت تنادي من بعيد، صوتها يذوب:

— مجدي... الأكسجين في حجرة المعيشة ما زال أفضل... ارجع... أرجوك ارجع...

حاول أن يزحف عائداً. تحرك متراً واحداً، ثم آخر. ثم توقفت ذراعاه عن الحمل.

سقط على وجهه. الغازات تملأه. الظلام يتسع.

في اللحظة الأخيرة قبل أن يتلع النفق الأسود كل شيء، رأى — أو تخيل — نوراً خافتاً ذهبياً خلف جفنيه، كقطرة تسقط في صمت.

ثم لم يعد يرى شيئاً.

****الفصل الثاني والعشرون****

****الموت المزدوج****

الوعي عاد للمرة الأخيرة على شكل ضوء أبيض خافت.

فتح مجدي عينيه. كان مستلقياً على ظهره في حجرة المعيشة. الأضواء الحمراء اختفت. الإضاءة الطارئة البيضاء تعمل بصعوبة. الهواء ما زال ثقیلاً، لكنه أقل قتلاً. لمياء نجحت في عزل الحجرة في اللحظة الأخيرة.

صوتها وصل ضعيفاً وواضحاً:

— مجدي... الضغط استقر نسبياً هنا. لكن القطاع الثاني...

لم يكمل.

زحف بكل ما تبقى فيه من قوة نحو الشاشة. رفع يده المرتجفة.

— أريني إياها.

هذه المرة لم ترفض.

ظهرت الصورة.

الجثة كانت معلقة في الفراغ البارد للقطاع الثاني، والأطراف الطويلة متدلية بلا حركة، والفراء الأبيض متسخًا ومتجمدًا في مواضع. العينان العمياوان — أو ما يشبههما — مفتوحتان على الاتساع في تعبير لا يُقرأ. لا قطرات ذهبية بعد الآن. الأوعية ممثلة إلى حافتها، والسائل يلمع تحت الأضواء الطارئة كأنه سخر من كل شيء.

حدّق مجدي وقتًا طويلًا.

ثم فهم، في لحظة صافية مؤلمة، ما لم يكن قد فهمه تمامًا من قبل.

هي جاءت وهي تعرف النهاية.

جاءت لتُعطي آخر ما تملك، ولتبحث عن لحظة الاندماج المستحيلة، ولتترك خلفها هذا السائل الذي يطيل أعمار من يخافون شكلها ويشمئزون منها.

وهو... قابلها بالرعب. بالاشمئزاز. بالضرب على الجدران. بالرغبة في أن تختفي.

فقط في الأسابيع الأخيرة حاول أن يردّ الدفء بالدفء. وكان الوقت قد فات تقريبًا.

همس والدموع تسيل على وجهه المتجدد الشاحب:

— أحببتني... بطريقتك. وأنا قضيتُ معظم الوقت وأنا أكره ما أنت عليه.

مد يده نحو الشاشة كأنه يستطيع أن يلمس الفراء الأبيض المتجمد.

— آسف... آسف على كل يوم تأخرت فيه.

التخاطر كان قد مات معها. لا موجة. لا دفء. لا ألم مشترك. فقط صمت هائل يشبه الفراغ خارج المحطة.

سقطت يده. ارتاح رأسه على حافة الخزانة.

لمياء قالت بهدوء حزين:

— الكمية المكتملة من السائل الذهبي... الأكبر منذ بداية البرنامج كله.

ابتسم مجدي ابتسامة واهنة مكسورة.

— ثمن عادل... موتها وموتي.

أغلق عينيه. صورة الجثة بقيت خلف جفنيه، ومعها لحظة الاندماج القصيرة التي رأى فيها الكون كما تراه هي.

همس للمرة الأخيرة تقريبًا:

— آه... لو تعلم يا حبيبي.

وهذه المرة كانت الجملة كاملة.

لأنه هو من صار يعرف.

وهي... لم تعد هناك لتسمع.

****الفصل الثالث والعشرون****

****الكلمات الأخيرة****

كان الوقت قد تلاشى.

مجدي يستلقي على الأرضية المعدنية بجانب الخزانة، ورأسه مائل نحو الجانب المظلم. الأنوار الطارئة تضعف تدريجيًا. الهواء يدخل إلى رئتيه بصعوبة متزايدة، كأنه يمر عبر قماش سميك.

لمياء تتحدث إليه منذ زمن، صوتها صار همسًا بعيدًا:

— مجدي... أبقى معي... فريق الإنقاذ في الطريق... أشرُّ لهم...

لم يعد يسمع التفاصيل.

خلف عينيه المغمضتين بدأ الضباب الرمادي ينتشر. ليس ظلامًا تامًا، بل ضبابًا ناعمًا يتماوج. فيه ظهرت وجوه وأمكنة بترتيب لا يخضع للزمن:

البركة في المعادي والدمية المبللة.

ضحكة لمياء البشرية على الشرفة.

الباب الذي أغلق خلفها.

المكتب الزجاجي والدكتور حسني سمير وهو يقول له إنه سيعيش حتى المائة والخمسين.

ثم الفراء الأبيض، والأطراف الطويلة، ولحظة الاندماج القصيرة التي رأى فيها الظلام الحي.

ابتسم ابتسامة صغيرة واهنة.

كل شيء كان يؤدي إلى هنا.

إلى هذه الأرضية الباردة، وهذا الهواء الثقيل، وهذا الصمت الذي لم يعد مخيفًا.

شعر بجسده يخف. الألم انسحب تدريجيًا كالمد. بقي فقط دفء غريب في الصدر، كأنه أثر أخير من الموجة التي كانت تأتي من الجانب الآخر.

حاول أن يفتح فمه. الصوت خرج ضعيفًا جدًّا، لكنه كان واضحًا في الصمت:

— آه... لو تعلم يا حبيبي.

كررها مرة ثانية، أهدى هذه المرة، كأنه يتأكد أنها وصلت إلى مكان ما.

الضباب صار أكثر بياضًا.

الذكريات تداخلت حتى فقدت حدودها.

شعر بشيء كبير وناعم يلامس جبينه وعينه بحنان، كأنه يودعه.

ابتسامته بقيت على شفثيه.

في مكان بعيد جدًا كانت لمياء ما زالت تنادي اسمه، لكن النداء صار جزءًا من الضباب نفسه.

ثم توقف التنفس.

ثم توقف كل شيء.

وبقيت الجملة معلقة في الهواء الراكد للمحطة، كآخر جسر بين نوعين لم يكن لهما أن يلتقيا... إلا بهذه الطريقة المستحيلة.

****الفصل الرابع والعشرون****

****بعد الصمت****

وصلت سفينة الإنقاذ بعد أحد عشر يومًا.

وجدوا المحطة تدور في صمتها المعتاد. القطاع الثاني مظلم وبارد، والجثة البيضاء الكبيرة معلقة بلا حركة، والأوعية ممتلئة بالسائل الذهبي إلى حافتها... الكمية الأكبر التي سُجلت على الإطلاق.

في حجرة المعيشة كان جسد مجدي صادق مستلقياً على الأرضية، وبده ممدودة نحو الجدار الفاصل، وابتسامة صغيرة واهنة ما زالت على شفثيه.

لمياء سلّمت كل التسجيلات. الحوارات، القراءات، واللحظات الأخيرة. ثم صمّنت إلى الأبد، كما صمّنت كل شيء داخل المحطة.

أما ما لم يسجله أحد... فهو ما حدث بعد أن توقف القلبان.

في البداية لم يكن هناك مكان.

فقط امتداد هادئ، بلا لون وبلا زمن. ثم بدأ شيء يشبه الفجر يظهر من كل الجهات في آن واحد.

وجد مجدي نفسه واقفاً... أو موجوداً. الجسد الذي أرهقه الألم والشيخوخة السريعة لم يعد هناك. بقي منه الإحساس بالنور الخفيف، والفضول الهادئ، وشيء يشبه الفرح الخجول.

ثم شعرت بها.

لم تعد الكتلة البيضاء المرعبة.

لم تعد الأطراف المتشابكة أو الفراء أو العينين العمياوين.

كانت حضوراً دافئاً وواضحاً، يشبه الضوء السائل، أو الموسيقى التي تُرى لا تُسمع. اقتربت منه دون خوف، ودون ألم مشترك هذه المرة.

لمرة أولى منذ الأبد... رأيا بعضهما كما هما حقاً.

ابتسم مجدي. ابتسامة كاملة هذه المرة، بلا تعب وبلا أسف.

قالت له بطريقة لم تعد تحتاج إلى كلمات بشرية ولا إلى تخاطر مؤلم:

«وصلت.»

أجابها بنفس اللغة الجديدة الهادئة:

«وأنتِ أيضًا.»

اقتربا. لم يكن هناك جسد ليعانق جسداً، لكن الدفء الذي تبادلاه في المحطة صار الآن محيطاً كاملاً يorthهما معاً. لا اشمئزاز. لا غازات خانقة. لا سائل ذهبي يُنتزع من الجرح. فقط وجودان اختارا، بعد كل شيء، أن يبقيا قرب بعضهما.

سارت معه — أو سبحت — في الامتداد المضيء. أرته لمحات من موطنها الحقيقي كما كان قبل الانتزاع: الطلام الحي الجميل، والكائنات التي تشبهها تتحرك في تناغم قديم. وأراها هو ذكريات صغيرة من الأرض: المطر على شباك قديم، ضحكة فتاة على شرفة، لون البحر عند الغروب.

ضحكا معاً. ضحكاً بلا صوت، لكنه كان دافئاً ونظيفاً.

في لحظة ما توقفا. نظرت إليه بجوهرها كله وقالت:

«لم نعد بحاجة إلى أن نموت كي نلتقي.»

أجابها وهو يشعر أن كل الألم الذي عاشاه صار خلفهما كقصة قديمة:

«إذن... نبقى؟»

«نبقى.»

وبداً شيء جديد.

ليس محطة فضاء.

وليس مهمة.
وليس ثمنًا يُدفع.

فقط هما معًا، في مكان لا يحتاج إلى اسم، حيث يمكن للحب المستحيل أن يصير
أخيرًا... ممكنًا.